الوحدة المصرية السورية فى الميزان التاريخى

أ.د. محمد عبد الرحمن برج

الوحدة المصرية السورية فى الميزان التاريخى

لعل أحد أهم إشكاليات دراسة التاريخ المعاصر هو التصدى لتلك الدراسة قبل مرور المدة الزمنية الكافية لدراسة الحدث. ولذلك كان أساتذتنا فى التاريخ يرون أنه من أوليات مناهج البحث التاريخى مرور الفترة الزمنية الكافية حتى تكتمل الصورة وتبتعد الانفعالات وتستقر الأمور ثم تكون الدراسة لهذا الحدث أو ذاك. ومن المتعارف عليه أن فترة الخمسين عامًا هى الفترة المفروض أن تمر على الحدث قبل دراسته . أما أقل من ذلك فهو يدخل فى عداد العلوم السياسية ولا يقترب من التاريخ المعاصر فى قليل أو كثير .

ومن هنا فإن مرور فترة الخمسين عامًا على أحداث الوحدة المصرية السورية تجعلنا نقدم مطمئنين على تقييمها فى ميزان البحث التاريخى .

هناك من أسرع بالكتابة يلقى اللوم على مصر وقائدها عبد الناصر لقبول الوحدة مع سوريا وأنها كانت بابا لجلب الخراب على مصر ! وهناك فى سوريا من فعل نفس الشئ فأشار إلى أن سوريا لم تكسب شيئًا من الوحدة وأنها كانت أشبه بجملة اعتراضية فى تاريخ سوريا .

لقد أظهرت الوثائق التى أفرج عنها حديثًا بأن سعى الغرب ـ وبالذات المخابرات البريطانية والأمريكية ـ للتخلص من عبد الناصر قد مضى قدمًا قبل العدوان الثلاثى على مصر وتدبير انقلاب فى سوريا .

نشر محمد حسنين هيكل فى آخر كتابه عن" ملفات السويس" وثيقة من وثائق إدارة المخابرات المركزية الأمريكية ، والوثيقة عبارة عن نص لتقرير بعثت به محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى لندن إلى رئاستها فى واشنطن فى ربيع ١٩٥٦، وعقب اجتماعات التنسيق للعمل ضد مصر بين الوكالة نفسها والمخابرات المركزية الأمريكية وبين هيئة المخابرات البريطانية.

ويتضح من نصوص التقرير أن المخابرات البريطانية كانت تريد اقناع

المخابرات الأمريكية بأن جمال عبد الناصر أصبح شيوعيًا ولهذا يتحتم الخلاص منه . ولم تكن المخابرات الأمريكية على وفاق مع المقدمة ولكنها كانت متفقة مع النتيجة ، فبينما كان الانجليز يرون عبد الناصر خطراً بسبب علاقاته مع الروس، كان الإمريكيون يرون أنه خطر لكن ليس بسبب علاقاته مع الروس، وإنما لأسباب أخرى ، من بينها محاولته لبناء مصر قوية فى موقعها الجغرافى ، ثم دعوته إلى الوحدة العربية ورفضه الصلح مع إسرائيل .

وإلى جانب ما تقوله الوثيقة بخصوص ضرب مصر وقتل جمال عبد الناصر، فإن الوثيقه تشير إلى خطط لتدبير انقلاب فى سوريا . كذلك تظهر الوثيقة أن البريطانيين تشاوروا مع إسرائيل بشأن سوريا ، أى أن الذى تؤكده الوثيقة أن التعاون مع إسرائيل عسكريًا ضد مصر كان سابقًا فى تفكير بعض الأجهزة البريطانية على الوقائع التى أعقبت قرار تأميم قناة السويس[١].

من المعروف أن الهجوم الإسرائيلي الغادر على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥، كان نقطة فارقة فى سعى عبد الناصر لكسر احتكار السلاح الذى فرضه الغرب عليه. وفى الوثائق التى أصدرتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين – الشعبة السياسية) مجلد بعنوان " اعتداءات اسرائيل قبل هجوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ على مصر" (الطبعة الثانية ١٩٦٥) فى هذا الهجوم المسلح على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ لم يكن صدامًا مسلحًا بين قوتين متكافئتين التقيتا وجهًا لوجه، بل كانت خطة غدر منظمة ألفها رجال كانوا ينتسبون إلى منظمات (الأرجون) (شتيرن) فى أيام الانتداب البريطانى . وتقدمت القوات الإسرائيلية إلى قطاع غزة أكثر من ثلاثة كيلو مترات وقتلت عددًا من الجنود وجرحت الكثير، وكانت الخسائر الناتجة عن هذا الهجوم ٣٩ قتيلا ٣٣ جريحا[٢].

كان هذا الحادث بدايه إقدام عبد الناصر على ماعرف باحتكار السلاح وإقدامه على صفقة السلاح التشيكية المعروفة .

وتتابعت الأحداث سريعة على النحو المعروف من تخلى الولايات المتحدة

الأمريكية عن تمويل السد العالى وقرار مصر تأميم القناة ثم كان العدوان الثلاثى على مصر .

كان التنسيق بين مصر وسوريا قد جرى متتابع الخطوات، فمن إنشاء لقيادة عسكرية موحدة مع مصر، إلى مناهضة للأحلاف وبالذات حلف بغداد، وأصبحت الدول الغربية مهتمة بتغيير الأوضاع فى مصر وسوريا. وكانت الحكومات العراقية المتوالية وخاصة تلك التى يرأسها نورى السعيد تعمل أحيانًا كأداة للدول الغربية، وأحيانًا أخرى تأخذ هى زمام المبادرة فى تلك المؤامرات.

وأعلن "عبد الحميد السراج " فى ٢٣ نوفمبر ١٩٥٦ مؤامرة للعمل ضد سوريا وكشفت التحقيقات أن الحكومة العراقية وجهت تعليمات إلى المتآمرين بالبدء بالعمل يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، ولا يمكن أن يكون ذلك من باب المصادفة مع بدء العدوان الثلاثى على مصر !

كان الاتفاق السورى المصرى فى مارس ١٩٥٥ عبارة عن تصريح شفوى موجه ضد الأحلاف. ونظر إليه على أنه خطة تمهيدية لقيادة عسكرية مشتركة.

وحتى وقوع العدوان الثلاثى على مصر ، كان العراق - منفردًا أحيانًا وبالاشتراك مع بريطانيا أحيانًا أخرى - هو الذى يتزعم المؤامرات ضد سوريا. أما بعد العدوان فقد دخلت الولايات المتحدة الأمريكية كعنصر جديد فى هذه المؤامرات تبعًا لتغير سياستها الرسمية إزاء الشرق الأوسط . ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية اعتبرت بريطانيا عاجزة عن تولى مهمة الدفاع عن الشرق الأوسط بعد فشلها فى تحقيق أهداف العدوان الثلاثى وأسمت الموقف المترتب على ذلك بالفراغ؛ لأنها لم تقتنع بأن الدول الوطنية التى نشأت فى المنطقة قادرة على الدفاع عن نفسها ضد خطر وهمى اعتقدت الولايات المتحدة بأنه الاتحاد السوفيتى [٣] .

وبمقتضى هذه المبادئ التى حملت اسم أيزنهاور يجوز للحكومة الأمريكية أن تقدم المساعدة فى أى وقت لصد عدوان الشيوعية الدولية؛ بناء على طلب

الحكومات المعنية فى المنطقة ، واعتمد الكونجرس لتنفيذ هذه المبادئ مبلغ مائتى مليون دولار فى ٥ مارس ١٩٥٧ ، وفى ١٣ من نفس الشهر انضمت الولايات المتحدة إلى اللجنة العسكرية التابعة لحلف بغداد وبناء عليه يمكن لتركيا أو الحكومات العربية الضالعة مع الغرب أن تستعدى الولايات المتحدة على سوريا بحجة أنها تهدد أمنها .

حدث هذا فى الوقت الذى تعاظمت فيه حركة القومية العربية بعد اندحار العدوانى الثلاثى على مصر، وأضاف فشل العدوان رصيداً هائلا لمصر ، بل لعبد الناصر بحيث بدأ يتحول إلى زعيم قومى ، وبدأ المواطن العربى فى كل مكان يعلق صورته فى بيته وفى مكتبه وجرى تنسيق تام بين مصر وسوريا انتهى بتوقيع اتفاق دفاع مشترك تم بين مصر والأردن ولم يستطع الملك حسين أن يقف فى وجه تيار القومية الجارف فطرد الجنرال جلوب وتجرأت البحرين فقذفت مظاهراتها سلوين لويد ، ولا ننسى أن مصر فى هذه الأثناء كانت تحصل من نهاية ١٩٥٥ على الأسلحة من الكتلة الشرقية .

ومن جانب آخر كانت مصر مع يوغوسلافيا والهند قد بدأت تدعو للحياد الإيجابي الذى يعنى رفض الأحلاف فى كل صورها. وفى الوقت الذى رحب فيه الاتحاد السوفيتى بهذه السياسة – سياسة الحياد – كان دالاس يرى أن الحياد غير ممكن وأنه من ليس مع الولايات المتحدة الامريكية فهو ضدها ، ولا ننسى أن ثورة الجزائر كانت فى ذلك الوقت على أشدها ودور مصر فى مساندتها معروف . وكانت إرادة شعب المغرب قد انتصرت وعاد إلى العرش المغربى الملك" محمد الخامس" بعد تنحية السلطان" محمد بن عرفة " .

لكن سرعان ما انقلب دور الملك حسين رأسا على عقب وأقال وزارة سليمان النابلسى وحل مجلس النواب ولجأ رئيس أركانه على أبو نوار إلى مصر، ومن بعده رئيس الأركان الجديد اللواء على الحيارى، وكذلك لجأ إليها فائق السامرائى سفير العراق . وبدأت القاهرة دورها النشيط فى إيواء اللاجئين

السياسيين أو المناضلين العرب .

وبدأ تقارب أردنى عراقى بين البيتين الهاشميين فى عمّان وبغداد. ولم يعد من الصعب أن تدخل الأردن حلف بغداد. لكن العقبة كانت سوريا التى زاد تقاربها مع مصر . وكانت القيادة السياسية فى مصر لا تفتأ تذكر وتكرر كيف أن دمشق أعلنت (هنا القاهرة) عندما ضربت دول العدوان الثلاثى محطة إذاعة مصر(٤).

ودرجت الولايات المتحدة الأمريكية على تصوير سوريا بأنها دولة صارت شيوعية تدور فى تلك موسكو، وبالفعل كتبت النيويورك تايمز فى أغسطس ١٩٥٧ عن قيام دولة جديدة دائرة فى فلك الاتحاد السوفيتى بالشرق الأوسط أدعت أنها سوريا .

وما من شك فى أن المسئولين الأمريكيين قد أخطأوا فى تصورهم أن اتفاق التعاون الاقتصادى مع الكتلة الشيوعية يعد نوعًا من التبعية ، ووسعت سوريا خلال عام ١٩٥٧ تعاونها الاقتصادى مع تشيكوسلوفاكيا بأن عهدت إليها بتأسيس مصفاة للنفط فى حمص . ثم عقد خالد العظم اتفاق واسع النطاق فى موسكو خلال شهر أغسطس من العام نفسه يشمل إصلاح ميناء اللاذقية وإعداده لرسو السفن الكبيرة حتى يقل اعتماد سوريا على موانى لبنان . كما تعهد الاتحاد السوفيتى بتقديم المساعدات الفنية المالية لاستصلاح مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية فى الجزيرة وتزويد سوريا بالجرارات .

وفكرت الولايات المتحدة أن تستخدم مبادئ أيزنهاور ضد سوريا ، فأوفدت لويد هندرسون وكيل وزارة الخارجية الأمريكية فى مهمة خاصة بالشرق الأوسط . وفى خلال شهر أغسطس ١٩٥٧ زار كلاً من تركيا والعراق ولبنان والأردن ، وكانت هذه الدول المجاورة لسوريا ضالعة فى تعاونها مع الغرب .

وأخذ كلٌّ من عدنان مندريس فى تركيا ونورى السعيد فى العراق يتحدثان عن الضرورة التى ستلجئهما إلى غزو سوريا .

ولم تقف الحكومة السورية مكتوفة الأيدى إزاء هذا التهديد فاستقدمت كتيبتين مصريتين إلى اللاذقية ، وتمت العملية بسرية تامة فى ١٤ أكتوبر ١٩٥٧، وكان ذلك نجاحًا باهرًا للبحرية المصرية لأن الأسطول السادس كان يتجول فى البحر المتوسط لمراقبة مثل هذه العمليات .

وأبدى الاتحاد السوفيتى استعداده لمساعدة سوريا وعرض على الدول الغربية الثلاث (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية) أن تشترك معه فى تصريح رباعى تتعهد فيه بعدم استخدام القوة فى الشرق الأوسط . إلا أن الدول الثلاث اعتبرت مشاركة الاتحاد السوفيتى فى مثل هذا التصريح اعتراف به كدولة مسئولة عن الشرق الأوسط وهو ما كانت مبادئ أيزنهاور تعمل لتحاشيه .

ولما كان الاتحاد السوفيتى يعتبر تركيا أكثر الدول المجاورة لسوريا تهديداً لأمنها ، فقد أرسل بولجانين إلى رئيس وزراء تركيا فى ١٠ سبتمبر رسالة مهمة اشتملت على إنذار شديد اللهجة للأتراك وأنهم يأسفون فى مرارة لأنهم يتبعون نصيحة الدوائر الأجنبية التى لا يهمها فى كثير أن يبقى السلام فى منطقة الشرق الأوسط بل كل ما يهمها استقلال مصادر الثروة الطبيعية فى هذه المنطقة. وقال الإنذار: (... ونحن مقتنعون بأن الحرب لو قامت فى سورية ثم انتشرت فى بقية بلاد الشرق الأوسط ، فإن تركيا ستفقد كل شئ إذا ما اشتركت فى هذه الحرب)[٥].

وفى مذكرات أكرم الحورانى وهو من السياسيين السوريين البارزين[٦] تفاصيل تتابع الأحداث نحو الوحدة .فذكر أن الوفد البرلمانى المصرى وصل إلى دمشق يوم السبت ١٦ نوفمبر ١٩٥٧ ، وفى يوم الإثنين الثامن عشر من نفس الشهر عقد مجلس النواب السورى جلسته التاريخية التى شارك فيها وفد مجلس النواب المصرى واستبدل علم الجمهورية السورية بعلم الجمهورية المصرية . وأقر مجلس النواب السورى الاتحاد مع مصر . وفى اليوم التالى أقر

مـجلس الأمـة المصـرى فى القـاهرة بالإجـمـاع قـرار الاتـحـاد الذى أقـره مـجلس النواب السورى .

ويؤكد أكرم الحورانى فى مذكراته أن عبد الناصر كان رأيه دائمًا أن الاتحاد يجب أن يتم على مـراحل . وقـد أعلن عن رأيه هذا بعـد اعـلان المـجلسـين المصرى والسورى قرار الاتحاد بين البلدين . ويقول الحورانى كان حزب البعث العربى الاشتراكى بقياداته وقواعده وأنصاره من المثقفين والطلاب والعسكريين والعمال والفلاحين والموظفين أبناء المدن مؤمناً بالوحدة وواثقًا من قيادة جمال عبد الناصر. وكان يرى فيها مع غالبية الجماهير منطلقًا لاسترجاع فلسطين وهزيمة الاستعمار والصهيونية مثلما كانت الوحدة مع مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبى منطلقًا لهزيمة الغزاة الصليبيين .

فى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ سوريا نشأ حوار بين الشيوعيين وحزب البعث حول مبدأ الاتحاد. وقد غير الحزب الشيوعى السورى موقفه حسب الظروف ، فوافق فى بداية الأمر على مبدأ الاتحاد على أمل أنه سيكون واهي القوى . فلما رأى اتجاه النواب فى المجلسين السورى المصرى نحو الاتحاد الفيدرالى الفعال ، ورأى أن حزب البعث يؤيد هذا الشكل من الاتحاد ، رأى أن يحرجه باتباع مناورة جديدة ، وهى المطالبة بأن تكون الوحدة تامة على أمل أن تحقيق ذلك يكاد يكون مستحيلاً وقتها ولا يريده جمال عبد الناصر نفسه . وعلاوة على ذلك يستطيع الحزب أن يكسب شوطًا فى الدعاية لنفسه بأن يظهر بمظهر المدافع عن القومية العربية ، وبذا يتخلص من سخط الجماهير فى سوريا التى كانت تبنى نقدها للحزب على أساس معارضته للوحدة العربية[٧]. ولكن الجيش هو الذى حسم الموقف بالنسبة لموضوع الوحدة مع مصر .

يقول خالد العظم[٨] فى مذكراته (... فى صباح ١٢ يناير ١٩٥٨ جاء مكتبى فى وزارة المالية الزعيم - الأميرالاى العميد - أمين نفورى وقال لى وعلى فمه ابتسامة لم أدرك معناها اجتمع الإخوان - وهو يقصد زملاءه رؤساء الشُعب .

ورئيس أركان الجيش وبحثوا قضية الاتحاد الفيدرالى مع مصر فوجدوا أن الأفضل أن يكون الاتحاد على أساس الوحدة الشاملة . وهكذا ألفوا وفدًا برئاسة البرزى وسافروا بعد منتصف الليل إلى القاهرة ليحملوا قرارهم إلى الرئيس عبد الناصر وسلمنى مذكرة مطبوعة على الآلة الكاتبة تحوى مطالب الضباط وقرارهم(٩).

ويروى العظم ما جاء فى المذكرة من أسباب توجهه لتوحيد أقطار الأمة العربية بشكل عام ومصر وسوريا بشكل خاص (... واعتبرت توحيد القطرين ضرورة قومية مستمدة من ماضى وحاضر ومستقبل مشترك ومساهمة فى القضاء على الاستعمار فى العالم) . ثم حددت المذكرة شكل الوحدة المنشودة فى دستور واحد وسلطة تشريعية واحدة وسلطة تنفيذية واحدة وسلطة قضائية واحدة وعلم واحد ورئيس دولة واحد .

بعد سفر الضباط إلى القاهرة أوفدت الحكومة السورية " صلاح البيطار" وزير الخارجية . ويحكى العظم أنه لم يصل إلى الوزراء شىء عن البيطار أو الضباط حتى كان يوم الثانى والعشرين من يناير ١٩٥٨ (... ففى هذا التاريخ جاءنى الضباط وفى مقدمتهم البرزى وأطلعونى على مشروع اتفقوا عليه مع عبد الناصر وسيعرضونه على مجلس الوزراء السورى ، وفى المساء اجتمع مجلس الوزراء السورى برئاسة رئيس الجمهورية وحضور أكرم الحورانى رئيس مجلس النواب وعفيف البرزى رئيس الأركان ومعاونيه الأربعة وعرض على مجلس الوزراء مشروع توحيد القطرين مصر وسوريا . وأهم مافيه رئيس واحد للدولتين وسلطة تشريعية واحدة ودستور دائم).

وأمضى العظم ليلته يدرس المشروع وأبدى اعتراضه على مضمونه ، ولكنه يقول أن الحورانى وغيره من الوزراء ورئيس الأركان ثاروا فى وجهه (فلما سألتهم عن الداعى إلى الاستعجال قال رئيس الأركان أن ثمة خطراً يهدد البلاد لانستطيع تداركه إلا بالوحدة فقلت بأن الأخطار على حد قولكم معشر الضباط

تعاقبت على سوريا منذ سنين عديدة وهى لاتزال سليمة فهل الخطر الآن أكبر من الماضى ؟ وما كنهه ؟ وما مبعثه ؟ فلم يحر أحدهم جوابًا لكنهم ظلوا يرددون الخطر كبير) .

وفى مذكرات خالد العظم التفاصيل الكثيرة عن تتابع الأحداث وسفر مجلس الوزراء السورى برئاسة " شكرى القوتلى " إلى القاهرة يوم الخميس ٣٠ من يناير ١٩٥٨ واستقبال عبد الناصر للوفد السورى . وتتابعت أحداث إجراءات الوحدة . ويذكر العظم أن الرئيسين عبد الناصر والقوتلى تباريا فى ذكر مجد العرب وتاريخهم وأشادا بمدح الأجداد ، وكانت العروبة والوحدة المسألتين اللتين ترددتا على لسانهما بدون حساب.

يقول خالد العظم (... وكنت أتذكر وأنا أسمع كلام عبد الناصر ما كان يردده فى ١٩٥٥ من أن مصر ليست مستعدة بعد لتقبل الوحدة. وكيف كان يرفض المشروع الذى قدمته إذ ذاك بتوحيد الجيشين وتنسيق أعمال وزارات الخارجية وربطهما بقيود صميمية . ثم تسابق الوزراء المصريون السوريون كل بدوره فى تبيان محاسن الوحدة وتعداد حسناتها)[١٠].

أشاد العظم بالرئيس عبد الناصر وكيف كان يتسم بروح سمحة يتقبل بها وجهات النظر المخالفة لرأيه، منها عندما أشار بإلغاء لقب وزير و استبداله بكلمة سكرتير عام ، فأشار الوزراء ببقاء اللقب ، فتقبل عبد الناصر ذلك . ويعلق خالد على ذلك بقوله (لقد أضاعوا شخصية الجمهورية السورية واحتفظوا لوطنهم وأولادهم وأحفادهم بهذه الغنيمة الغالية !!).

ثم يقول العظم (... دُعينا إلى توقيع محضر إعلان الوحدة فوقعناه جميعا وخرجنا إلى الشرفة المطلة على باحة جانبية اجتمع فيها ما يقدر بألفى شخص يحملون اللافتات ويصرخون بأعلى الأصوات ما أمروا به من تحية العروبة والوحدة وعبد الناصر والقوتلى ، ثم وزع علينا عبد الناصر الأوسمة وهى وسام النيل للوزراء وقلادة الجمهورية لرئيس الوزراء صبرى العسلى وبذلك قبضنا ثمن

موافقتنا على رغبات مصر !)

ولعله من المفيد أن ندخل حادث الوحدة المصرية السورية ـ وقد مضى عليه نصف قرن من الزمان ـ ميزان التقييم التاريخى .

أولاً : أن أمل الوحدة العربية أمل عزيز وغالى عند كل عربى ولقد صدر لى كتاب عن ساطع الحصرى عام ١٩٦٩ فى ذكرى وفاته فى الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٦٨، و كان ساطع من أشد المؤمنين بالوحدة العربية ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملاً متواصلاً دون توان أو تخاذل. يقول ساطع (... أننى أعتقد اعتقادًا جازماً بأن الوحدة العربية ضرورية لحفظ كيان الشعوب العربية، كما أعتقد أنها طبيعية بالنسبة إلى حياة الأمة العربية وتاريخها الطويل. فلا أشك أبدًا فى أنها ستتحقق يومًا من الأيام إن عاجلاً أو آجلاً) .

ولذلك سعد ساطع السعادة كلها واغتبط كل الاغتباط يوم تحققت أول تجربة للوحدة بين مصر وسوريا . وأرسل له أكرم الحورانى يوم إعلان الوحدة برقية جاء فيها :

(فى فجر هذا اليوم الذى يتحقق فيه الأمل بتحقيق وحدة القطرين العربيين نتطلع إلى الأحرار الملهمين الذين غذوا نفوس هذا الجيل بشعور القومية لنحيى فيهم روح الوطنية التى حملت هذا المشعل دون وهن فلكم شكر الوطن)[١١].

لكن التجربة الحبيبة إلى نفس كل عربى واجهت ما كان ساطع يحذر أبناء الأمة العربية منه. واجهت مقاومة من أصحاب المصالح الذين ترتبط مصالحهم ومطامعهم بالنزعة الإقليمية. وواجهت حربا من جانب الاستعمار الذى ترتبط مصالحه هو الآخر بتقوية الاتجاه الاقليمى واستمرار التباعد والتنابذ بين الدول العربية.

ثانيا : لايمكن لوحدة أن تقوم على العاطفة وحدها، وفى مذكرات أكرم الحورانى فى الجزء الثالث يروى ماذكره المقدم مصطفى حمدون ـ أحد الضباط الإثنين والعشرين الذين سافروا إلى القاهرة فى ١٥ يناير ١٩٥٨ ليلحوا على

عبد الناصر أن يوافق على إتمام الوحدة بين مصر وسوريا ، و أحد الضباط المهمين فى حزب البعث العربى الاشتراكى بالجيش السورى .

يذكر حمدون عن تلك المقابلة أن عبد الناصر أبلغ الضباط مخاوفه من إتمام الوحدة بهذا الشكل المتعجل وأوضح لهم أن فى سوريا أحزابًا وهذا غير موجود فى مصر . وأن الجيش السورى مسيّس وأن هناك عدة تنظيمات فيه لعدة أحزاب. كذلك ذكر لهم عبد الناصر أنه غير مطلع كفاية على شئون سوريا وأحوالها ومجتمعها وشخصيتها السياسية، ثم عاد وركز حديثه على الأحزاب والحزبية، ثم وجه الكلام إليَّ مباشرة (هل تعتقد أن حزب البعث العربى الاشتراكى يرضى بحل نفسه ؟). أدركت المغزى من توجيه السؤال إلىَّ بالذات . فأجبته على الفور: (ليس من حقى الإجابة على هذا السؤال لأننى عسكرى وممكن لسيادتك أن تبحث هذا الموضع مع زعماء الحزب خاصة وأن السيد صلاح البيطار سيأتى إلى القاهرة كما علمت).

ويمضى حمدون فى مذكراته التى أوردها أكرم الحورانى عنه أن عفيف البرزة التزم جانب الهدوء بشكل ظاهر . ولم يتعد حديثه جانب المجاملة للرئيس المصرى وإعجاب الضباط السوريين بشخصه . غير أن إقامة الوحدة الفورية كان جماع ما تحدث به بقية أعضاء الوفد . كما ردوا على تحفظات الرئيس المصرى بوجود الحزبية والأحزاب فى سوريا بأنها جميعها لا تشكل عائقًا أمام تحقيق الوحدة . وقالوا(إننا نضع أنفسنا تحت تصرفك ياسيادة الرئيس ، ولك أن تتصرف بنا كما تشاء وأن بإمكانك أن تجرى كل التنقلات التى ترتئيها فى صفوفنا ... وأن الجوار أقام جدارًا بيننا وقد جئنا لنهدم هذا الجدار) .

ويقول حمدون: (لم يطل النقاش كثيرًا، فقد فاجئنا الرئيس عبد الناصر بموافقته على تحقيق الوحدة بين البلدين، وأكد على ضرورة الوحدة بالذات وليس الاتحاد أو الاتحاد الفدرالى) .

ثالثًا : عند قيام الوحدة حدث ما خشيه عبد الناصر، فسرعان مابدأت

الأحزاب السورية تعمل ضد الوحدة سواء منها حزب البعث الذى قبل بقرار حل الأحزاب أو الحزب الشيوعى الذى رضخ على مضض واستمر يعمل فى الخفاء وغادر زعيمه بكداش أرض الجمهورية العربية المتحدة [١٢].

ولم تلبث الخلافات أن نشبت بين البعث وبين حكومة الجمهورية العربية المتحدة . فقد اعترض أعضاء الحزب المنحل على مبدأ التعويض الذى أقره قانون الإصلاح الزراعى لصالح الملاك الذين انتزعت أملاكهم . ولم يملأ الاتحاد القومى الفراغ الذى خلفته الأحزاب السورية المنحلة .

رابعًا : منذ قيام الوحدة لم يتحقق اندماج على المستويين الإدارى والتشريعى وظل مجلس الأمة الموحد معطلاً معظم الوقت . ولذلك بقيت القوانين الإدارية والتجارية مختلفة فى الإقليمين، كذلك بقى هيكل الجيش السورى قائما باسم الجيش الأول ولم يحدث اندماج إلا على مستوى القيادات العليا . وقد تأثر بعض كبار الموظفين خاصة فى السلك الدبلوماسى بنظام الوحدة إذ تطلب إدماج السفارات الاستغناء عن بعضهم .

وقد أوضحت فى كتابى عن ساطع الحصرى كيف أخذ يفند الاتهامات التى وجهت لتجربة الوحدة ، فهناك من رأى فى الوحدة أنها حرمت المدرسين السوريين من أن يكون لهم دروس إضافية يتقاضون عنها راتبًا ، وهناك من رأى فيها أنها أضرت بالمحامين لأنها أوجدت لجان مصالحة ، فصار الكثيرون من أصحاب الدعاوى يحلون قضاياهم فى اللجان المذكورة فلا يذهبون إلى المحاكم! ، وهناك من قال أن الوحدة كانت ظالمة. وحين يسأله ساطع عن أى نوع من الظلم يقصد فيجيبه القائل أنه كان صاحب قضية قضائية فانتهى الحكم فيها إلى حكم جائر، و حين يسأله ساطع : وهل كان القاضى مصريًا ؟ يجيبه لا كان سوريا ! وهل القانون الذى حكم به وضع فى عهد الوحدة ؟ يقول لساطع لا، كان القانون موجودا قبلها.

ويدهش ساطع ويقول: وما علاقه هذه القضية بالوحدة ؟!. ثم يقول (لقد

كنتم تنتظرون من الوحدة أن تأتى بالمعجزات ، كأنها تملك عصا سحرية ، تستطيع أن تغير كل الأحوال وتصلح كل الأمور فى جملة واحدة ، فتحقق ما عجزت عن تحقيقه أرقى دول العالم، أو كأنها المدينة الفاضلة التى يسود فى أرجائها العدل المطلق والخير العميم).

كان ساطع وهو يتقصى الحقائق التى أدت إلى الانفصال يريد أن يقف على أمور موضوعية فيخيب أمله من أن نظرة كل شخص للوحدة كانت نظرة من جهة مصالحه هو أما الساسة الذين أيدوا الانفصال وباركوه ، فقد أخذ ساطع يذكرهم بتصريحاتهم قبل الوحدة وإبانها وكيف باركوا هذه الوحدة وأيدوها. ثم يتكلم عما عرف بالأخطاء التى بررت الانفصال أو تقال تعليلاً له :

(... إننى أعتقد أن كل من يربط بين الانفصال وبين الأخطاء، يرتكب خطأ عظيما يدل على تقصير كبير فى الفهم السياسى، فضلاً عن ضعف شديد فى الإيمان القومى. لأن الخطأ والصواب من الأمور الدارجة فى الحياه الفكرية والسياسية، فلا يسلم من الخطأ فى بعض الأمور إنسان مهما كان عظيمًا وعبقريا..)[١٣].

خامسًا: يذكر محمود رياض فى مذكراته كيف أن العمل الخارجى ضد الوحدة قد بدأ قبل قيامها. فقد عقد اجتماع فى أنقرة يوم ٢٢ يناير ١٩٥٨، لمجلس حلف بغداد حضره "فوستر دالاس" وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة بعد انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحلف، وكان الموضوع الرئيس الذى جرى بحثه فى هذا اللقاء موضوع الاتحاد المصرى السورى. وكان من رأى نورى السعيد وعدنان مندريس رئيس وزراء تركيا أنه يتعين على أعضاء الحلف، بذل كل ما فى وسعهم لمنع قيام هذا الاتحاد لأنه سيخلق أوضاعًا جديدة على حدودهما. فكانت تركيا ترى أنه كان يوجد على حدودها الجنوبية دولة تعدادها خمسة ملايين وأصبح تعداد هذه الدولة فجأة ثلاثين مليونًا. كما أثار مندريس خطورة استمرار نقل البترول من الخليج خلال قناة السويس وأنابيب البترول التى تمر فى الأراضى السورية، وطالب الولايات

المتحدة بالعمل على مد خط أنابيب لنقل البترول الإيرانى والعراقى عبر الأراضى التركية(١٤).

يذكر زهير الشايب فى كتابه " السماء تمطر ماءً جافًا " أنه فوجئ كمواطن يتابع أخبار بلده بأن خالد بكداش الزعيم الشيوعى وعضو مجلس النواب السورى، يقاطع الجلسة التى أقرت الوحدة بل ويغادر قبل انعقادها ويفر من سوريا كلها ويلجأ إلى الاتحاد السوفيتى الذى لم يخف امتعاضه لقيام دولة الوحدة حتى كان هو ـ فيما أذكر ـ آخر دولة اعترف بها . ويقول زهير الشايب "... على أن السؤال الذى سيظل يشكل لي لغزًا كبيرًا هو ذلك الموقف الغريب لكل من الدولتيين العظميين : لماذا يتحفظ الاتحاد السوفيتى على قيام الوحدة بين بلدين يعاديان حلف بغداد الموجه ضده ؟ ولماذا تسارع الولايات المتحدة بشجب سياسة عدم الانحياز وتعترض على مجئ السلاح الروسى إلى المنطقة والتى تلجأ أجهزة الدعاية التى تمولها هى ودول الغرب وقتئذ إلى التهجم على عبد الناصر وتصفه بأنه شيوعى ؟ لماذا تسارع ومن بعدها دول الغرب بالاعتراف بقيام دوله الوحدة ؟ لماذا يكون أول قرار لرئيس دولة الوحدة هو استبعاد قائد الجيش السورى لأنه شيوعى ؟ لماذا لم تبد تركيا أى تحفظ على قيام دولة قوية على حدودها وهناك مشكلة اللواء السليب على الاقل ؟ ولماذا يسقط بين يدى نورى السعيد فلا يجد حركة يقوم بها سوى إقامة الاتحاد العربى بين العراق والأردن ليواجه دولة الوحدة الفتية ؟ " ويقول الشايب " أن هذه مجرد أسئلة تطرح لمجرد محاولة الفهم ، وإذا كان لها من دلالة هنا فإنها تدل فيما تدل على تعقد وتشعب الشئون والعلاقات الدولية ".

والحقيقة التى كان ينبغى أن يرجع إليها زهير الشايب وغيره ما حدث لمصر تحت حكم محمد على . فبعد إبرام معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ التى أعطت محمد على حكم مصر وراثيًا، وحكم المنطقة الجنوبية من سوريا المعروفة بولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا ذاتها وقلعتها ، وبعد رفض محمد على للمعاهدة على نحو ما هو معروف ، أخذت انجلترا تثير السوريين

ضد الحكم المصرى لتجبر محمد على باشا على إخلاء سورية ، كما تم إخلاء قواته من الجزيرة العربية لينحصر حكمه فى مصر وراثيًا فى أسرته .

ونختم هذا البحث بالحديث أنه ما كان للاستعمار ليرضى ببقاء دولة قوية تضم مصر وسوريا تحت علم واحد ، فكان السعى لانفصام تلك الوحدة تأكيدًا لسياسته التى تحرص على أن تحول بين الدول العربية وبين قيام وحدة تقوى شوكتها وتزيد نفوذها فى منطقة هامة من مناطق العالم . ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى قول بالمرستون، السياسى الانجليزى أنه من أهداف السياسة البريطانية عدم بقاء هذه الكتلة العربية متماسكة متحدة. كما أننا لسنا فى حاجة إلى الإشارة أن خلق الكيان الصهيونى وأطماعه التوسعية فى المنطقة العربية هو ضمان لتنفيذ هذه السياسة .

هوامش البحث

(١) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس حرب الثلاثين سنة . ط١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٧٦ ، ص ص ٩٢٥ – ٩٢٧ .

(٢) وثائق جامعة الدول العربية :إعتداءت إسرائيل قبل الهجوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، الطبعة الثانية ١٩٦٥ ص ٩٩ .

(٣) صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣ ص ١٢٨

(٤) زهير الشايب : السماء تمطر ماء جافا ، نقلا عن جمعية القاهرة ٢٠٠٨/٢/٢٦

(٥) Kink :Contemporary Arab politques Chap.five
نقلاً عن صلاح العقاد، المشرق العربى ص١٣١ .

(٦) أسس أكرم الحورانى عام ١٩٥٠ الحزب العربى الاشتراكى و اندمج حزبه مع حزب البعث الذى أسسه ميشيل عفلق وصلاح البيطار ليتشكل منهما حزب البعث العربى الاشتراكى .

(٧) صلاح العقاد: المشرق العربى ، ص ١٣٢ .

(٨) مذكرات خالد العظم ، الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٦٢، نقلاً عن جريدة القاهرة ٢٠٠٨/٢/٢٦ .

(٩) المرجع السابق .

(١٠) نفسه .

(١١) محمد برج : ساطع الحصرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٢١ .

(١٢) مذكرات أكرم الحورانى ، نقلاً عن صحيفة القاهرة ٢٠٠٨/٢/٢٦ .

(١٣) محمد برج : مرجع سابق ص ١٢١ .

(١٤) مذكرات محمود رياض: الجزء الثانى بعنوان" الأمن القومى العربى بين الإنجاز والفشل نقلاً عن جمعية القاهرة ٢٠٠٨/٢/٢٦ .